البنى الأسلوبية في الشعر الثوري قصيدة "وتعطلت لغة الكلام"لمفدي زكريا أنموذجا

الطالبة: كجعوط فاطمة الزهراء
إشراف :د/ براهيمي بداود
المركز الجامعي غليزان

ملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة أسلوبية لقصيدة مفدي زكريا "وتعطلت لغة الكلام" من أجل إبراز جمالياتها الشعرية والكشف عن مكنوناتها ،متكئين في ذلك على مجموعة من الآليات الإجرائية،نلج من خلالها أعماق هذه القصيدة ،مستشفين طرائق تشكل البنى الشعرية والقيم الجمالية المتمخضة عنها.
الكلمات المفتاحية: الثورة ،الأسلوبية، مفدي زكريا ،الشعرية، البنية.

Résumer :
Ce travail est une approche stylistique du poème de moufd izakaria «ouataatal atloghato el kalam » ayant pour but de mettre en valeur son caractère esthétique. Et de ressortir tous ses éléments implicites, en se basant sur des mécanismes opérationnels à travers, les quels nous dégagerons sa structure profonde, afin d'en tirer les bases poétique et les valeurs esthétiques qui en découlent.
Mot cleé : révolution,stylistique ,poésé,moufdizakaria, structure.

مقدمة:
مثلت الثورة الجزائرية نقطة تحول هامة ومنعطفا بارزا في مسار الشعر الجزائري، فأفرزت جيلا من الشعراء التزموا بالقضايا الثورية والوطنية، فتغنوا بالثورة وعبروا عن آلامهم ومعاناة شعبهم، فاتجهوا من خلال شعرهم إلى الواقع المرير،باحثين عن الحرية متقصين سبلها،محركين الثورة بالكلمة فكان مفدي زكريا واحدا من أبرز هؤلاء الشعراء الذي أبدع أيّما إبداع في هذا المضمار ومنه ور هذا البحث للإجابة عن الإشكاليات الآتية:
ماهيالآلياتوالوسائل اللغوية التي استعان بها الشاعر لتحقيق ما يرمي إليه؟
وهل كانت الإمكانات التي توسلها الشاعر قادرة على تبديل لغة الشعب من الكلام إلى الألغام؟

الإيقاع الخارجي للقصيدة:
وهو الإيقاع الصوتي الناتج عن وزنه الذي انتظمت ألفاظها في قالبه المتزن،وألحقت به نعت "الخارجي"لكونه قالبا إيقاعيا مسبقا عن كل عملية إبداعية وبعبارة مألوفة:«أعاريض الخليل التي استنبطها من الشعر العربي القديم».[1]

البحر: وبحر القصيدة الذي اعتمده الشاعر لإيصال انفعالاته و غليانه الداخلي هو بحر الكامل التام وقد وسموه بالكامل لأنه يصلح لكل أنواع الشعر ولهذا كان كثيرا في كلام المتقدمين والمتأخرين[2]، واستعان الشاعر بهذا البحر لما فيه طول تتسع من خلاله كثرة التفاعيل والمقاطع الصوتية الموافقة لأناة الشاعر كما أن هذا البحر ملائم للأغراض الجادة.
وبتقطيع البيت تظهر التفعيلات الأتية:

نطق الرصاص، فما يباح كلامو	وجرى القصاص فما يتاح ملامو
°|°||/°||°|| |/°||° |||	°|°||/°||°||/°||°|||

متفاعلن /متفاعلن /متفاعل متفاعلن /متفاعلن/ متفاعل

ومنه فليس الوزن في هذه القصيدة صورة موسيقية فرضت عليه فرضا لتكون حلية تزينية ،كلا فالوزن ظاهرة طبيعية لتصوير العاطفة لا يمكن الاستغناء عنها مطلقا[3].

القافية:فالقوافي حوافز الشعر عليها جريانه واطراد وهي موافقة إن صحت استقامة حريته وحسنت مواقفه ونهايته[4].

وعليه تكون القافية الواردة في القصيدة كالتالي:

مـــ/ـلامو

°|°|/

وهي قافية مطلقة لأن الشاعر أنهى الكلمات الأخيرة من كل بيت بالضم (الميم المضمومة الموصولة بالواو التي دلت في القصيدة على الفاعلية والامتداد.

الروي:

استعان الشاعر في قصيدته بحرف الميم كروي. «فالروي هو الحرف الذي تبنى عليه القصيدة وتنسب إليه»[5] وكان هذا الروي مصحوب بالضمة (الرفع) والرفعة بطبيعتها الفيزيولوجية مستعلية ومفخمة، لأنها تحدث نتيجة «ارتفاع مؤخر اللسان عند النطق بالصائت المرفوع المضموم له الشفتان»[6] فمحافظة الشاعر على هذه الحركة من أول القصيدة إلى آخرها دليل على رفعته وأنفته وثباته على هذا حتى النهاية.

التصريع:

لقد طبع التصريع على مطلع هذه القصيدة حلة جمالية وإيقاعا موسيقيا تطرب له الأذن وتدعواللمواصلة .

الإيقاع الداخلي:

«هوذلك الإيقاع الخفي الذي يجعل من خلاله الشاعر الألفاظ تعرف إيقاعا موسيقيا تتداخل فيه قواعد النظم مع أحاسيسه وانفعالاته .»[7]ويندرج ضمن الموسيقى الداخلية ظواهر كالتكرار ولجناس ، المقابلة والتضاد ،ومنه نلاحظ أن الشاعر جنح إلى توظيف الأصوات التي تتلاءم مع جوه النفسي الثائر وهو ما يسمى بالصدى الصوتي للمعنى إذ نجد الأصوات المجهورة تفوق الأصوات المهموسة . وهي وحدات صوتية متقابلة والجهر يوحي بالقوة والحركة.

وتوارد حرف الميم رويا وهو حرف مجهور،تكرار ساعد على التوافق الصوتي والغنة التي عبرت عن الإحساس بالمحنة.

الجناس:

لقد كانت القصيدة زاخرة بهذا النوع من البديع الذي أضفى عليها رونقا موسيقيا وإثباتا للمعنى ومنه نجد:

البيت1: (القصاص، الرصاص) (يباح، يتاح).

البيت6: (حرروا، حرروا) وأيضا (الصفائح، الصحائف) (الحرب، حبر) (الكلام،كلام) (المكاتب، كتائب) (المحافل، جحافل) (لوافح، لوائح) (الأقلام، الأفلام).

الطباق:

وفيه حاول الشاعر أن يجمع بين الشيء وضده لتتضح المعاني أكثر وكان في: (يقعد، يقام) (شيخ، غلام) (نزلتم، راحلون) (اعترفوا، انكروا) (بيانهـا الابهام).

التكرار:

يلعب التكرار دورا دلاليا على مستوى الصيغة والتركيب ويشمل حروف الجر، أدوات الشرط، الضمائر المنفصلة والمنفصلة، تكرار الأسماء والأفعال، فيلجأ إليها الأديب لخلق الموسيقى التي يريدها وذلك لما يوفره من ترجيح للصوت، وخاصة الأصوات الملائمة للموقف الفكري، أما من جهة المعنى فلا شك أن للتكرار وظيفة أساسية في تأكيد أفكار الأديب وإقناع القارئ في آن معًا"[8].

وقد اتخذ التكرار اللفظي في شعر مفدي أشكالا مختلفة منها:

ليس الجهاد زعامة وثنية إن الجهاد شهادة ونظام[9].

هو يكرر كلمة الجهاد يدعو شعبه إليه ويستنهض الهمم.

أيضا في الأبيات الأتية:

لا النار، لا التقتيل، يثني عزمه لا السجن، لا التنكيل، لا الاعدام
لا الذاريات، الماحقات، هواطلا لا الشامخات تدكها الألغام
لا القاصرات، الغافلات كواعبا ديست قداستها وفض ختام
لا الحاملات، بطونها مبقورة ذبحت أجنحتها، وفك حزام
لا والمراضع، عوضت أثداوها بفم المسدس، والرصاص فطام[10]

الملاحظ من هذه الأبيات ورود اللام مكررة عشر مرات ،نلحظ في البيت الأول والثاني تكرار أفقي ثم عمودي في بقية الأبيات، وكررها الشاعر ليستبعد عن الثورة كل ما يثبط عزمها وأنه لا شيء يمكن من ذلك مهما كانت فضاعته.

كما تكررت كلمة "الجزائر" تسع مرات وكلمة "ثورة "ست مرات وكلمة "أرض"وردت خمس مرات، وكان تكرار هذه الألفاظ ليبعث الشاعر في شعبه حب «الجزائر» وتمسكه بأرضها ولا يكون ذلك إلا بالثورة المسلحة بعد أن عجزت لغة الكلام عن تحقيق الهدف.

الانزياحات التركيبية:

أ- التقديم والتأخير: تقديم الجار والمجرور: ويمثل هذا النوع من التقديم أبرز صور التقديم والتأخير وكان وافرا في

هذه القصيدة: مثل ذلك:في المغرب عرق نابض

وأصل التركيب: عرق نابض في المغرب. وقد ورد هذا التقديم لبيان أهمية المقدم وإعلاء شأنه ،وأنه أولى في المراد من غيره إذ قدم المغربلإحساسه العميق بالانتماء إليه وأن المصير واحد.

وأيضا في:

لك في الجزائر حرمة قدسية: تقديم لك قاصدا الثورة للإعلاء من شأنها وأيضا تقديم في الجزائر " على المبتدأ " حرمة" .

وكذلك: زكابها في الخالدين عصام وكان هذا التأخير "لعصام" فاعل لمواقفه القافية وحرف الروي وهي للضرورة الشعرية وهذا التقديم والتأخير البارز في شعر مفدي زكريا ،لم يكن اعتباطا بل ورد إما ليعلى من شأن المتقدم أو للضرورة الشعرية أو للإنقاص من شأن المتأخر أو للتخصيص.

الحذف: هو آلية لغوية تركيبية يعلق فيه الشاعر القول بإسقاطه لبعض عناصر السياق هذا الإسقاط اللغوي له جانبان: الأول نحوى والثاني بلاغي...، أما البعد البلاغي فهو معرفة البعد الدلالي الذي من أجله رجح الحذف على الذكر،[11] وقد ورد في شعر مفدي زكريا على أوجه مختلفة أهمها:

السيف، أصدق لهجة من أحرف: حذف المبتدأ "هذا" وتصدر السيف الجملة. الغرض منه التخصيص

وأيضا في: والنار أصدق حجة: حذف المبتدأ وتقدير التركيب "هذه النار والغرض من هذا الحذف التخصيص.

وكان لهذا الانحراف النحوي في هذه العبارات دلالة عميقة. فجاء الحذف تنشيطا للخيال وتقوية للإيحاء من ناحية أخرى.

الأسماء والأفعال: كان النصيب الأوفر في هذه القصيدة للأسماء على حساب الأفعال فكان عدد الأسماء ثلاثمائة وتسعون اسما بينما وقعنا على مائة وثمانية عشر اسما وخاصة أن كلمات القافية وردت كلها عبارة عن أسماء ،هذه الأسماء دلالة على الاستقرار والثبوت. أعلن الشاعر من خلالها عما آلت إليه الأمور، هو يصف ثباتها على وتيرة واحدة، ذلك أن لغة الكلام لم تحقق أي تبديل للوضع. فهو يريد لغة الثورة والحرب.

وكان نصيب الأفعال الحسية أكبر من المعنوية لأن المقام يستدعي ذلك فهو يحرك الشعب للقيام بالثورة ،بالحرب. لأن لغة الكلام قد عجزت عن تحقيق المبتغى.

الأساليب الإنشائية: وهي تركيب من تراكيب الجملة العربية له صيغ عديدة وينقسم إلى قسمين: إنشاء طلبي وهو ما يستلزم مطلوبا ليس حاصلا وقت الطلب، ويكون بالأمر والنهي والاستفهام والتمني

والنداء، والإنشاء غير الطلبي ما لا يستلزم مطلوبا حاصلا وقت الطلب وله صيغ كثيرة منها أفعال الرجاء والتعجب والمدح"[12] وتنوعت هذه الأساليب في شعر مفدي زكريا على المنحى الأتي:

الإستفهام:

هم حرروا الميثاق، هلا حرروا أمما، تساق حقارة وتضام؟[13]

استفهام غرضه الإنكار، إنكار أن تحرر فرنسا هذا الشعب المستضعف.

وقوله أيضا:

ما للجزائر ، ترجف الدنيا لها والكون يقعد حولها ويقام؟

ما للقيامة، في الجزائر أرعدت فغدالها في الخافقين غمام؟

والغرض من هذا الاستفهام تعظيم شأن الجزائر وافتخاره بها بين غيرها من الأمم

وفي: كاللص يسترق المتاع ويدعى ملكا...أيسمع للصوص كلام؟[14]

الغرض منه نفي الاستماع إلى كلام المستعمر. ووعوده الكاذبة.

وكذلك: عز العروبة في حمي استقلالنا أيطير مقصوص الجناح حمام؟[15]

النداء: ارتهن الشاعر إلى هذا الأسلوب ليسترعي اهتمام المخاطب حتى يبلغه رسالة هامة وكان ذلك في الأبيات التالية:

يالعنة الأجيال أنت شهادة أن التمدن للشرور لثام

هو يستحضر اللعنة للعدو والذي يظلم بإسم التمدن.

وكذلك في قوله:

يا أمة العرب الكرام، كرامة لك في الجزائر حرمة وذمام

يا ثورة التحرير أنت رسالة أزلية إعجازها الإلهام

يا ثورة التحرير دونك هام، وأيضا :يا جبهة التحرير انت رجاؤنا.

النهي: لا تعجبوا فالدهرسجل دورة ما للخطوب على الشعوب دوام، الغرض منه التوكيد لشعبه بأن هذه الخطوب زائلة لا محالة لا تيأسوا و منه أيضا:

لا تعجبوا فالقوم ضاع صوابهم يا ناس ليس على المريض ملام

غرضه التقليل والتحقير من شأن فرنسا عليله القلب والعقل.

الأمر: كان جليا في هذه القطعة الثورية لأنه يخاطب فرنسا بأن ارحلي ويخاطب شعبه أن هلموا للكفاح المسلح.

ويظهر ذلك في قوله آمرًا الثورة

شقي طريق الخالدين وسطري بدم الشهادة فالدماء قوام

واستنطقى الأحداث عن أجدادنا تشهدلنا في الخالدين عظام

واستجوبى الأفلاك، عن أمجادنا تدحض كذبا يدعيه طعام

وآمرا المستعمرين:

يامعشر المستعمرين تربصوا ودعوا المطامع فالسحاب جهام

الصور البيانية: أضفت هذه الصور على القصيدة بعدا جماليا ودلالات إيحائية من أجل توصيل المقصود. فتواردت الاستعارات بشكل لافت في هذه القطعة الثورية ويظهر ذلك في قول الشاعر:

1- نطق الرصاص: استعارة مكنية ذكر المشبه به الإنسان وترك قرينة لغوية تدل عليه وهو الكلام.

2- قضى الزمان فلا مرد لحكمة :استعارة مكنية

3- وانطوى يوم النشور: استعارة مكنية، والطوي صفه للكتاب

4- والكون باح: إستعارة مكنية.

5- فقالت الأيام: إستعارة مكنية.

6- لغة القنابل في البيان فصيحة.استعارة

التشبيه: في قول الشاعر:

كاللص يسترق المتاع ويدعي ملكا. إذا شبه فرنسا بالسارق لما نهبته من خيرات الجزائر وادعت بأنها ملك لها.

المستوى الدلالي:

تظهر ثروة الشاعر اللفظية من خلال تنوع الحقول الدلالية في شعره تبعا لتنوع الوقائع المعبر عنها، والحقول الدلالية التي توزعت عليها مفردات معجمه الشعري هي:

1- **حقل الثورة والكفاح:** احتلت المفردات الثورية المرتبة الأولى في الحقول الدلالية لأشعار زكريا ومنها: الرصاص، السيف، النار، حرب، جحافل، قنابل، لوافح، التنكيل، السجن، البارود، الرشاش، الخطوب، الألغام، المسدس، يحارب، ، خصام، الخميس. وكان هدف الشاعر من التوظيف البارز لهذه المفردات اضرام ثورة وانتفاضة حربية لأن لغة الكلام عجزت عن تحقيق الاستقلال فكانت لغة الرصاص بديلا.

2- **حقل الموت:** الإعدام، التقتيل، الجماجم، القصاص، نصعق، مبقورة، ذبحت ،يهتك، دم، شهادة، عظام ،وكانت هذه الألفاظ دالة على وحشية الاستعمار.

3- حقل المفردات الدينية: التي أوحت بارتباط الشاعر بالقيم الإسلامية وتربيته الدينية وتجلت في: القيامة، عنت، شاخصة، خرت، يوم النشور، الأصنام، الجهاد، الأنصاب، الآزلام...إلخ.

4- **حقل الطبيعة:** الكون، الزرع، الأكوان، دورة، شطأه، الحصاد، الأنعام، الوحوش، الأعصار، الأفلاك، السحاب، السما، النفط، أرض ،الصحراء.

5-**حقل أسماء البلدان:** فرنسا، الجزائر، المغرب العربي، مصر، شام وهذا إحساسا من الشاعر بإنتمائه العربي وقوميته.وأن الحال متماثل في هذه الأوطان.

6- **حقل الزمان:** الزمان، الأيام ، الليل، الدهر، الأعوام.

ومنه يتضح ثراء المعجم الشعري لدى مفدي زكريا ،وتجلى ذلك في كثرة الحقول الدلالية التي استعان بها، فكانت مشحونة بالدلالات التي عكست نفسية الشاعر المضطربة والمتألمة.

التناص:

1- **مع القرآن:** لقد استقى الشاعر من المعين القرآني كثيرا من الألفاظ والعبارات ليكون لها وقعا في نفس المتلقي، ذلك أنه متشبع بكتاب الله العزيز والثقافة الإسلامية، ولأنه يعلم يقينا ذلك الارتباط الروحي الوثيق بين القرآن والشعب الجزائري ويظهر ذلك في:

والحق والرشاش إن نطاقا معا عنت الوجوه وخرت الأصنام

هو تناص مع قوله تعالى:وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا[16]

وتناص آخر في:

والزرع أخرج في الجزائر شطأه فمضى وهب إلى الحصاد كرام

تناص مع الآية الكريمة:وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ[17]

وأورد هذه الآية ليدلل بها على تزايد خيرات الجزائر وتزايد أهلها رغم التقتيل ،مثله في ذلك قوم عيسى إذا تكاثروا وتزايد عددهم كزرع كثر الفرخ منه.

2- **التناص مع الشعر:** لقد آثر الشاعر احتذاء حذو القدامى في منحاهم الشعري شكلا ومضمونا ودليل ذلك قوله:

السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام

إن الصفائح للصفائح أمرها والحبر حرب، والكلام كلام

فهو المعنى نفسه الذي توخاه ابو تمام في واقعة فتح العمورية إذ يقول:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجدواللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متنوهن جلاء الشك والريب[18]

فكلا الشاعرين يحض على لغة الصفائح بديلا للغة الصحائف.

و تناص آخر تجلى في عنوان القصيدة "وتعطلت لغة الكلام" هو تناص مع بيت لأحمد شوقي يقول فيه:

وتعطلت لغة الكلام وخاطبت عيني في لغة الهوى عيناك[19]

انحرف بها مفدي زكريا عن غرضها الغزلي إلى غرضه الثوري الغاضب. لما تملكه اليأس من لغة الكلام.

الخاتمة:

لقد نظم الشاعر هذه القصيدة وهو حبيس بسجن بربروس ومناسبة هذه القصيدة خذلان المنظمة الدولية للقضية الجزائرية مما أثار ثائرته، ألقى هذه القصيدة ليثير العزم ويستنهض الهمم حاثا على الكفاح المسلح بدلا من لغة الكلام، فجاءت القصيدة على بحر الكامل. وهي ميمية نظمها على طريقة القدامى، واستعان بإمكانيات لغوية لتوصيل فكرته تجلت في الحذف والتقديم والتأخير، والأساليب الإنشائية التي أدت دورا دلاليا في سياقها. واستعان الشاعر بوسائل التصوير الشعري التي تجلت بشكل لافت في الاستعارة من أجل فضح أساليب العدو، وكانت المنابع التي استقى منها الشاعر ألفاظه متنوعة ومتعددة متمثلة في حقل الثورة ،وحقل الموت،ويظهر الحقل الديني بشكل واضح دلالة على تشبع الشاعر بالروح الإسلامية والثقافة العربية الأصيلة، وكان تناص هذه القصيدة واضحا مع القرآن والشعر العربي.

الهوامش:

1- مختار جبار، الشعر القديم في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية وهران، 1997، ص19.

2- محمد عبد الحميد، في إيقاع شعرنا العربي وبيئته، ط1، الإسكندرية دار الوفاء لدنيا الطبع والنشر، ص 47.

3- نور الدين السد، الشعرية العربية، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص 79.

4- ناصر لوحيشى، المسير في العروض والقافية، سلسلة الكتب الأساسية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ديوان المطبوعات الجامعية،ص148.

5- المرجع نفسه، ص 150.

6- مكي درار، الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه، رسالة ماجستير، وهران 1985، ص343.

7-حياة معاش،الأشكال الشعرية في ديوان الششتري،دراسة أسلوبية،أطروحةدكتوراه،جامعة باتنة،2011،ص54.

8- اميل بديع يعقوب: جبران واللغة العربية منشورات جروس بيرس، بيروت-لبنان، 1958، ص144.

9-مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دت، ص44.

10-مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دت، ص43.

11-عبد الباسط محمود: دراسة في لغة الشعر، شعر بشار بن برد، دراسة أسلوبية دار طيبة للنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص288.

12-عبد النعيم خليل : نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة نحوية دلالية، ط1، 2007، ص178،177

13-مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دت، ص41.

14-مفدي زكرياديوان اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دت،ص45

15-مفدي زكريا، ديوان اللهب المقدس، موفم للنشر، الجزائر، دت، ص47.

16-سورة طه، الأية 111.

17-سورة الفتح، الأية 29.

18-الخطيب التبريزى، شرح ديوان أبي تمام ج1، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط2، 1994، ص32.

19-إيليا الحاوي، أحمد شوقي أمير الشعراء، ديوان الكتاب اللبناني بيروت، ط3، 1983، ص169.